درس السابع حرب الفجار

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على النبي الكريم المصطفى، صلوات ربي وسلامه عليه. مرحبا، بوسيتي رسول الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. كنا قد بدأنا كلامنا في الدرس الماضي حول فترة سبا النبي صلى الله عليه وسلم، ابتداء بفترة رضاعه، وذكرنا نبذة عن مرضعاته وإخوانه وأخواته من الرضاعة رضي الله عنهم أجمعين، واستكمالا منا في الحديث عن فترة سباه. فقد ذكرنا في الحصص الأولى أن بوفاة أم النبي صلى الله عليه وسلم كفله جده عبد المطلب لمدة سنتين، ثم وافته المنية، تاركا أمر رعايته لعمه أبي طالب. وأبو طالب كان رجل نبيها شهما نبيلا، صادق المروءة، ماضي العزيمة، منتصرا لمبادئ العدل، محبا للنصفة، وقد كلف نفسه أقصى ما يستطيع في كفالة ابن أخيه، وحمايته، والسهر على تربيته، والعناية بعافيته، وتهذيبه، حتى أنبته نباتا حسنا، فذكر الواقدي أن أبا طالب كان. مقلا من المال، لكنه رزق البركة في قليله، وكانت له قطعة من الإبل تكون بوادي عرنة. فيبدو إليها، فيكون فيها، ويؤتى بلبنيها إذا كان حاضرا بمكة. وهذا الواد حسرت فيه فيلة أبرهة، ولم تستطع التقدم نحو الكعبة، وكان عيال أبي طالب إذا أكلوا جميعا، وفرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم شبيع، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغذيهم أو يعشيهم يقول كما أنتم حتى يأتي ابني. فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم، فيفضلون من طعامهم، وإن كان لبنا شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم، ثم تناول القعب، فيشربون منه، فيروون من عند آخرهم من القعب الواحد، وإن كان أحدهم لا يشرب قعبا وحدة، فالقعب آنية للشرب، فيقول أبو طالب إنك لمبارك. وكان الصبيان يصبحون شعثا، رمسا. ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهينا كحيلا، وقالت أم أيمن، وكانت تحضره ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم شكى جوعا قط، ولا عطشا. وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شرب، فربما عرضنا عليه الغداء، فيقول أنا شبعان، وقد استمرت حماية أبي طالب للنبي صلى الله عليه وسلم حتى بعد بلوغه، ونزول الوحي عليه، والأمر بتبليغ دعوته، فقد كان يحميه وينصره، ويمنعه كفار قريش من إيصال الأذى إليه. فيمكن القول أن المدة الزمنية التي مكثها النبي صلى الله عليه وسلم،في كفالة عمه وحمايته ورعايته، تتراوح ما بين 40 سنة إلى 44 سنة تقريبا، بناء على اختلاف أقوال أهل العلم في هذه المسألة. تهيئة أبو طالب للرحيل إلى الشام في تجارته، فكانت رحلته الأولى منذ كفل محمد صلى الله عليه وسلم بعد موت

جده. وقد شب محمد عن الطوق، وأخذ يدرك ألم الفرقة بعد أن ذاقها بوفاة أمه وجده، وتعلق بعمه وهو أليفه وأنيسه وحاضنه. أمسك النبي صلى الله عليه وسلم وهو صبي ذاك في الثانية عشر سنة أو أكثر بقليل، بزمام ناقة عمه الذي كان على رأس القافلة، وقال يا عم، إلى من تكلني؟ لا أبى لي ولا أم. فقال يا ابني، لقد سرت رجلا. فقال أريد الذهاب معك، وعيناه تفيض دمعا، فرق له قلب أبي طالب، وقال والله لن أدعك لأحد، وإني عند عدي لعبد المطلب. وردفه، وسار به في القافلة، ويروي العباس أن الحال كان حال صيف، وانتبه الناس إلى ظل غمامة تسير مع سير النبي صلى الله عليه وسلم، والناس تقول يتيم تعطف عليه السماء. ويروي أبو موسى الأشعري قال خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياء من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا، رح رحالهم، فخرج إليهم الرعب، وكانوا قبل ذلك يمرون به، فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم الراب حتى جاء، فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين. فقال له أشيخ من قريش ما علمك؟ فقال إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبقى شجر ولا حجر إلا خر سجدا، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غدروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاما، فلما أتاهم به، وكان هو في رعاية الإبل، قال أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله. فلما دنا من القوم وجد القوم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس ما لفيء الشجرة عليه، فقال انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، والحديث بطوله، وقد حسنه الترمذي، واسنده جيد، وقد صححه الحاكم، وقواه العسقلان والسيوطي، وقيل إن الرهب اسمه جرجس أو جورج، ولم ينزل الراهب، ولم يزل الراهب يناشد أبي طالب أن يعيد النبي. صلى الله عليه وسلم. ويلح وعليه بعدم مواسالة الرحلة، لأن اليهود قد يعرفوه، وهم قوم حقد، حتى ردوا أبي طالب مع بعض الفتية، وهذي القصة طرقها توحي بأصلها، ولكن بعض تفاصيلها قد يكون موضع بحث، وبعد تلك الفترة بسنوات قليلة اندلعت أحد أشهر حروب القبائل، وهم وما وهو ما يسمى بيوم انفجار، وهو أحد أشهر أيام العرب، وحروبها في الجاهلية، وقد سميت بحرب انفجار، لأن العرب قد فجروا في القتل. أي أسرفوا فيه واستحلوا الحرمات. ولأن الحرب وقعت في الأشهر الحرم، وهو ما كان محرما عند العرب القتال فيه، وقد وقعت بعد عام الفيد ب20 عاما أو أقل من ذلك. وكانت في أربع جولات، فالانفجار الأول كان بين كنانا وهوازن، والثاني بين قريش وكنانا، والثالث بين كنانا وبني نظر، ولم يكن فيه قتال، والأخير بين قريش وكنانا كلها، وبين هوازم وقريش هي فرع من قبيلة كنانا، استقل بذاته عن سائر كنانا، فيقال قريش.

ولهذا، إذا أطلق لقب الكناني. فإنه يقصد به بنو عبده مناد ابن كنـا، وبنو مالك بن كنانـا، وبنو ملكان ابن كنا. وأما لقب القرشي فيختص ببني النظر بن كنانة. وكان أنا، هو الجد الثالث عشر في عمود النسب الشريف للنبي صـلى الله عليه وسـلم، فـالنبي محمد قـرش كناني، وقبيلة قيس، وتنتمي لها عدة قبائل مشهورة كهوازن، وغطفان وثقيف وغـيرهم. ينتمي العـرب جميعا وفق رواية من السـبيل العـرب إلى جثمين كبـاينين هما قحطـان وعـدنان. وتتفـرع عـدنان إلى جثمين هما مضر وربيعة. وتتفـرع مضر إلى فـرعين كبـيرين هما إللي ياسر بن مضـر، وقيس عيلان ابن مضـر، وقبيلة قيس عيلان من أضخم قبائل العرب، وهي تضم قبائل وبطونا وعشائر كثيرة قبائل العرب على مـراتب هي الشـعب ثم قبيلة ثم عمـارة ثم بطنا ثم فخذ ثم فصـيلة فالشـعب النسب الأبعد مثل عـدنان وقعتـان والقبيلة مثل ربيعة ومضر. والعمـارة مثل قـريش وكنانة. والبطن مثل بني عبد مناث، بني مخزوم، والفقض مثل بني هاشـم، وبـني أميـة، والفصـيلة مثل بـني أبي طـالب، وابن عبـاس، وكنـان من إليـاس، وهو أخ قيس عيلان ابنا مضـر، وقد ذكر أهل السيرة أن تلك الحرب كانت في زمن النعمـان بن المنـذر ملك الحـيرة العـراق الآن أي في الفـترة الزمنية الممتـدة بين 552 و 609 للميلاد. وكـان النعمـان مسـيحيا دستوريا، وأمه يهودية، تسلم مقاليد الحكم بعد أبيـه، وهو من أشـهر ملـوك المنـاذر قبل الإسلام. يعود نسبه النعمـان بن المنظر إلى قنص بن معد بن عـدنان. وقد وفد عليه من الشخصيات العربية الكثير، كالصحابي حسان بن ثابت والنابغة الذبياني، وحاتم الطـائي الذي اقترن الكرم والجود والسخاء بذكره، ومن أخباره أنه كان يرعى مـرة إبل. لأبيـه، إذ قدم عليه ضيوف جهل هويتهم، وعندما عرفوا، وعندما عرفهم، كانوا شـعراء ثلاث، وعبيد بن الأبـرص، وبشر بن أبي خـازم، والنابغة الـذبياني، وكـانت وجهتهم النعمـان، فسألوه القرى أي الطعام الـذي يقـدم للضـيف؟ فنحر لهم ثلاث من الإبل. فقـال عبيد إنما أردنا بال قرى اللبن، وكانت تكفينا بكـرة. إذ كنت لا بـد، متكلفا لنا شـيئا، فقـال حـاتم قد عـرفت والله، ولكـني رأيت وجوها مختلفـة، وألوانا متفرقـة، فضـننت أن البلـدان غـير واحـدة فـأردت أن يـذك أن يـذكر كل واحد منكم، ورأى إذا أتى قوما فقـالوا فيه أشـعارا امتدحوه بها، وذكروا فضه، فقال حاتم أردت أن أحسن إليكم، فصـار لكم الفضل عليـه، وأن أعاهد أن أضـرب عـراقيب إبيلي عن آخرهـا، أو تقـوم إليها فتق. ففعلـوا. فأصـاب الرجل 39، وما ضوء إلى النـوع من والنبه. حـاتم سـامع بما فعـل، فأتـاه، فقـال لـه أين الإبل؟ فقال حاتم يا أبت، طوقتك بها طوق الحمام، مجد الدهر، وكرما، لا يـزال الرجل يحمل بيت شعر أثـني به علينا عوضا من إبلـك، فلما سـمع أبـوه ذلك قـالأبي إبلي فعلت ذلك؟ قال نعم. قال والله لا أساكننك أبدا. فخرج أبوه بأهله، وتـرك حاتمـا، ومعه جاريته

فرسه، وما المواقف أيضا؟ حكي أن ملكان بن أخي ماوية زوجة حاتم الطـائي،قـال قلت لها يوما يا عم ما حدثيني ببعض عجائب حاتم، وبعض ما كان أخلاقـه، فقـالت ابن أخي أعجب ما رأيت منه أن أنه أصابت الناس سنة قحطا، أذهب للخفة والظلف، وقد أخـذني وإياه الجوع وأصهرنا. فأخذت سفانا، وأخذ عدي. وهما ابناهما، وجعلنا نعلي لهما حتى نـام، فأقبل علي يحـدثني ويعـدلني بالحـديث حـتى أنـام، فـراثقت به لما به من الجـوع فأمسكت عن كلامه لينام فقال لي أنمت؟ فلم أجبه، فسكت ونـاظر في فنـاء الخبـاء، فـإذا شيء قد أقبل، فرفع رأسه فإذا مرعا، فقال ما هـذا؟ فقـالت يا أبا عـدي أتيتك من عنـدي صبية يتعاون كالكلاب أو كالذئاب جوعا. وقال لها أحضر صبيانك، فوالله لأشبعنهم فقا. فقامت سريعة لأولادها، فرفعت رأسي، وقلت له يا حـاتم بمـاذا تشـبع أطفالهـا؟ فوالله ما نام صبيانك من نجوع إلا بالتعليل. فقـالت والله لأشـبعنك، وأشـبعن صـبيانك وصـبيانها، فلما جاءت المرأة نهضة قائما، وأخذ المدية بيده، وعمد إلى فرسه، فذبحه، ثم أجج نارا، ودفع إليه شفرا، وقال قطعي وشـوي، وكلي، وأطعمي صـبيانك، فـأكلت المـرأة أشـبعت صبيانها فائقة أولادي، وأكلت أطعمتهم، فقال والله إن هذا له والؤم. تأكلون، وأهل الحي حالهم مثل حالكم. ثم أتى الحي بيتا بيتا يقول لهم انهضوا بالنار. فاجتمعوا حول الفرس، وتقنع حاتم بكسـائه بكسـائه، وجعل ناحيـة، فوالله ما أصـبحوا، وعلى وجه الأرض منها قليلا، ولا كثـير إلا العظم والحـافر، ولا والله ما ذاقها حـاتم، وإنه لأشـدهم جوعـا، وابن حاتم الطائي هو عودين، هذا هو الذي قال يا رسول الله إن أبي كان يصل الرحم، وكان يفعل ويفعل. قال إن أباك أراد أمرا، فأدركه يعني الشـهرة والـذكر. وهـذه من الخصـال التي عرف بها العرب من الكرم والجود، والوفـاء بالعهـد، وقد كـان لهم بعض الأخلاق التي زاغت عن الفطرة السوية، والسلوك القويم، ولهذا قال النـبي صـلى الله عليه وسـلم إن ما بعثت متمما لمكارم الأخلاق، وعودة إلى النعمان، فإنه كـان يبعث كل عـام لطيفة له لسقع عكاظ، أي قافلة من الإبل محملة بالحريري والطيب والمسـكن التجـارة، وبينما هو في مجلسه. يـوم، وكـان في مجلسه رجلين بـارزين، أحـدهما هو الـبراد بن قيس بن رافع الكناني، وقد كان رجلا خليعا فاتكا قد خلعه قومـه، أما الثـاني فهو عـروة بن عتبة بن جعفر المعروف بن رحالة من قبيلة الق قيس. وقد سـمي بالرحـال لكـثرة ترحاله مع الملـوك. قـال النعمـان من يجـيز لطيفة هـذه حـتى يبلغها عكـاظ أن يحميها من قطـاع الطرق، فرد عليه البراد أنا أجيزها على كنانـا، فقـال نعمـان أريد من يجيزها على كنانا وقيس، فقال عروة ويحكى أكلب خليع يجيزها لك يقصد البراد. أنا أجيزها لك على أهل الشيح والقيصوم، وهذا مثلا يضرب. يقصد به أنه يحميها من كل العرب. وساق عـروة بالإبل. وانطلق إلى سوق عكاظ، فتبعه الـبراد، وفي غفلة من عـروة انقض عليه الـبراد

وقتله بالقرب من عكاظ، وساق البراد الإبل إلى عكاظ. كـانت كل القبائل العربية تجتمع في سوق عكاظ لتبادل المنفعة، فلما قتل البراد عروة بعث رجلا من بني أسد بن حزيمة إلى كنانا في صقع عكاظ، ليخبرهم أن البراد قد قتل عروة الرحـال. ويحـذرهم من قبيلة قيس. فلما وصـلت أنبـاء قتل عـروة إلى عكـاظ، انطلقت كنانا إلى مكة لتحتمي داخل الحرم فتبعتها قيس وكان القتال في الحـرم معظم عند العـرب، حـتى في الجاهليـة، كـان من عادة العرب عند دخول الحرم، تركوا أسلحتهم قبيل الـدخول، فكـان بيت عبد الله بن جدعان. هو المكان الـذي يـترك فيه السـلاح لأي قـادم إلى مكة. وكـان حـرب بن أميـة، وهو والد أبي سـفيان، وجد معاوية. وهو والد أبي سـفيان، وجد معاوية ومجـير الـبراد، ورأس العشيرة التي ناصبت بني هاشم، أشد العداء، جاء إلى عبد الله بن جدعان فقال له احتبس قبالك، سلاحها، وازن خوفا من استعمال السلاح ضدهم، فأجاب بن جـدعان أب الغـدر تـأمرني يا حـرب، والله لو أعلم أن لا يبقى منها سـيف. إلا ضـربت بما أمسـكت منها جيع، ثم توعد القبيلتـان. أن يقتتلـوا. وقـالت قيس إنا لا نـترك دم عـروة، وموعـدنا عكـاظ في العـام المقبـل، وفي العـام المقبل انـدلعت الحـرب بين القبيلـتين كنانا وقيس، وظلت الحرب بينهما سجالا، وقد شـارك النـبي صـلى الله عليه وسـلم في هـذه الحـرب، وسنه لا يتجاوز ال20، وقد ساهم في الحرب، فكـان ينـاول أعمامه النبـال كـالزبير بن عبد المطلب. والعباس، وهمزة. حتى أن حرب بن أمية قال لعبد الله بن جدعان ألا ترى لهذا الفتى كل من حاز إلى فئة إلا هزم من يحاديهـا، وقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم بعد ذلك ما أسـرني أني لم أشـله، إنهم تعـدوا على قـومي عـرض، عرضـوا عليهم أن يدفعوا إليهم البراد صاحبهم، فـأبوا. وفي نهاية الأمـر، تقـدم أحد الشـباب القرشـي، وهو عروبة بن ربيعة، فأتاهم ذات يوم وهم يقتتلون، وقال لهم على ما تقتتلـون؟ فـالتفتوا إليه وقالوا ماذا تريد؟ فقال عروة أريد صلحا، قالوا وما الصلح؟ قال عروة نفتـدي قتلاكم أن يدفعوا لهم الديا، ونعفو عن قتلانا، فاصطلحوا على أن يعدوا القتلى من الجانبين، فعـدوا القتلى، فوجـدوا أن قتلى قيس يزيـدون عن قتلى قـريش، وكنانا ب20 رجلا. وتـرك حرب بن أمية ابنه أبا سفيان رهينة. كما ترك بعض السادات أبناءهم حتى دفعـوا الديـة، وبهذا انتهت الحرب، ووضعت ووضعت أوزارها، وأسدل الستار، وأسدل السـتار على معركة من معـارك الجاهلية الـتي كـانت قائمة على أسـاس الحمية والعصـبية والقبلية. وكانت هذه المعارك القائمة على نصرة الأخ ظالم أو مظلومـا، ممهـدة لحلف الفضـول، بعد ذلك الذي كان قائما على العدل والإنصاف، وهو ما سنراه في الدرس القادم إن شاء الله. إلى هنا يكون ختام درسنا على أمل اللقاء بكم. أستودعكم الله، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.